التُّراثُ الصُّوفيُّ ودورُه في إصلاحِ منظومةِ القِيَمِ في العصرِ الحديث

The Sufi heritage and its role in reforming the values in the modern era

أنس عطية الفقي*

anasatia@hotmail.com

الملخص

التُّراثُ الصُّوفيُّ الإسلاميُّ رصيدٌ زاخرٌ بالقيمِ والفضائلِ الإنسانيَّة، فأهلُ التَّصوُّف هم خاصةُ عبادِ الله، الذين صدقوا في عبوديتهم، وجاهدوا في تطهيرِ نفوسِهم ساعين إلى معرفةِ الله سبحانه؛ ليصلوا إلى مقامِ الإحسان في معاملة الخلق والخالق.

ولعل هذا المنهج من الفكر الدِّيني السَّمح هو الذي جعل الفلاسفة والحكماء في كل عصر يحترمون التَّصوُّف بصفة عامة، بل يدرجون الدِّراسات الخاصة به في إطار الدِّراسات الفلسفيَّة الإنسانيَّة الواقعيَّة، التي يمكن أن تحمل حلولًا لكثير من المشكلات النفسيَّة والاجتماعيَّة.

فالواقع أن الصُّوفيّة ليسوا فرقةً من فرق الإسلام التي جعلتْ لنفسها نصيبًا مفروضًا من المعتقدات المخالفة لعموم المسلمين، بل على العكس، كانوا هم أهل تحقيق التوحيد وأهل الإيمان وأهل الخصوصية، ولذلك كانوا يتبرأون

* رئيس التَّحرير، أستاذ الدِّراسات العربيَّة والإسلاميَّة، ومدير مركز تحقيق التُّراث العربيّ – جامعة مِصْرَ للعلوم والتكنولوجيا.

أحيانًا من أن يتميزوا على غيرهم باسمٍ ما، فقد سُئل أحدُ أئمة الصُّوفيّة وهو الإمام الشِّبْلي: لم سمي الصُّوفيّة بهذا الاسم؟ فقال: لبقية بقيت عليهم من نفوسهم، ولولا ذلك ما تعلقت بهم تسمية.[1]

من هنا جاءت فكرة هذا البحث، التي ترى في نشر تراث الفكر الصُّوفيّ المتوازن، الذي ينطلق من أصول الدين، ويؤيده المنطق، سبيلًا لمعالجة المشكلات المعاصرة التي يواجهها الناس في ظل العولمة وما أفرزته وسائل التواصل الاجتماعي، من تشويش فكري، وسطحية ثقافية، وفساد أخلاقي.

وتنقسم هذه المشكلات بصورة عامة إلى مشكلات عقديَّة، ومشكلات أخلاقيَّة ومشكلات نفسيَّة. فالمشكلات العقدية: كالتحلل من المعتقدات الدينيَّة، وكذلك الطائفية الدينيَّة، ثم التعصب المذهبي أو الفريقي أو "الجماعاتي" إن جاز التعبير.

والمشكلات الأخلاقيَّة معروفة، وقد انتشر منها مستجدات على شبكات التواصل الاجتماعي، مثل التنمر والتحرش والكذب والغش والتعدي على الحقوق الماديَّة والأدبيَّة والتَّعدِّي على الخصوصيات.

أما المشكلات النفسيَّة معظمها يتركز في الإحباط واليأس والتشاؤم والسلبية وانتشار الفتن والضغائن بين الناس.

<u>الكلمات المفتاحية</u>: التَّصوُّف الإسلاميّ – الفكر الصُّوفيّ والمشكلات الاجتماعيَّة – التُّراث الصُّوفيّ والعولمة – التَّصوُّف والتَّطرُّف – التَّصوُّف والقيم الإنسانيَّة.

Abstract

The Islamic Sufi heritage is a wealth of human values and virtues. The people of Sufism are special servants of God, who believed in their servitude and strived to purify their souls, seeking God Almighty's awareness. to reach the status of piety in dealing with creation and the Creator.

Perhaps this approach of tolerant religious thought is what made philosophers and sages in every age respect Sufism in general, but include its studies within the framework of realistic human philosophical studies, which introduce solutions to many psychological and social problems.

In fact, the Sufis are not a sect of Islam that has made for itself an imposed share of the beliefs that contradict the majority of Muslims. On the contrary, they were the people of achieving monotheism, the people of faith, and the people of privacy, and that is why they sometimes absolve themselves from being distinguished from others by a name, Imam al-Shibli was asked, may God bless him. Why was Sufism called by this name? He said: For the rest, they remained in their souls, and if it were not for that, they would not have been named.

the idea of this research comes From here, which sees the dissemination of the heritage of balanced Sufi thought that stems from the origins of religion and is supported by logic as a way to address contemporary problems faced by people in light of globalization and the intellectual confusion, cultural superficiality, and moral corruption caused by social

media. These problems are generally divided into nodal problems, ethical problems and psychological problems. The doctrinal problems: such as the dissolution of religious beliefs, as well as religious sectarianism, then sectarian or ethnic fanaticism or “communalism”, so to speak. Ethical problems are well known, and developments have spread on social networks, such as bullying, harassment, lying, cheating, infringement of material and moral rights, and infringement of privacy. As for psychological problems, most of them focus on frustration, despair, pessimism, negativity, and the spread of strife and grudges among people.

Keywords: **Islamic Sufism/ Sufi thought and social problems/ Sufi heritage and globalization/ Sufism and extremism/ Sufism and human values.**

مقدمة:

تحرص الدِّيانات السَّماويَّة بصفة عامة على تطهير النفوس من نزواتها وأطماعها الماديَّة وغرائزها العدوانيَّة، وفي المقابل تساعدها على تقوية إرادتها بدعم القيم الأخلاقيَّة النبيلة، والصفات الفطريَّة السويَّة، وذلك من خلال العبادات والمناسك والطقوس التي يمارسها الإنسان فيتحرر بها من قيود المادة إلى آفاق الروح؛ فيسهل عليه التعايش والتواصل مع أخيه الإنسان.

وتأتي المحبة في مقدمة المشاعر الراقية التي يمكن أن ينبثق منها الخير لبني الإنسان، فقد جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تَدْخُلُونَ

الجَنَّةَ حتَّى تُؤْمِنُوا، ولا تُؤْمِنُوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُمْ علَى شيءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلامَ بيْنَكُمْ". (صحيح مسلم).

فالمحبة والسَّلام كلمتان مرتبطتان بسعادة الإنسان، وتحقيق السَّلام لا يأتي إلا بغرس بذور المحبة في نفوس مطهرة من الأطماع الماديَّة، متصلة بخالقها التي تؤمن به، واثقة في فضله، راضية بقضائه.

والتَّصوُّف الإسلاميّ قد اختص بالنَّظر في أحوال النَّفس ودقائقها، وفي تلك المشاعر التي تتولَّد من أثر التعبد والتقرُّب إلى الله تعالى؛ لذلك فمن الخطأ اعتبار الصوفيَّة فرقةً تختلف عن عامة المسلمين؛ لأن التَّصوُّف جزء جوهريّ لدى كل مسلم، بل لدى كل صاحب دين سماوي، يؤمن به ويهتدي بأنواره.

وحينما انتشرت علوم الدِّين الإسلاميّ من فقه وتفسير وحديث وأصول وسيرة وغيرها، ظهر في الآفاق علم التَّصوُّف الإسلاميّ ليتمم منظومة العلوم الإسلاميَّة؛ بحيث يكتمل النَّظر في مقوِّمات الدِّين ظاهرًا وباطنًا، شأنه في ذلك شأن علم النفس في منظومة العلوم الإنسانيَّة.

من هنا جاءت فكرة هذا البحث، التي ترى في نشر تراث الفكر الصوفيّ المتوازن، الذي ينطلق من أصول الدين، ويؤيده المنطق، سبيلًا لمعالجة المشكلات المعاصرة التي يواجهها النَّاس في ظل العولمة وما أفرزته وسائل التَّواصل الاجتماعيّ، من تشويش فكريّ، وسطحيَّة ثقافيَّة، وفساد أخلاقيّ.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يتناول ثلاثة محاور:

الأول: التُّراث الصُّوفيّ والتجانس مع المعتقدات الفطريَّة.

الثاني: من مجاهدة النفس إلى تزكيتها.

الثالث: التواصل الاجتماعي الإيجابي ومكارم الأخلاق.

المبحث الأول: التُّراث الصُّوفيّ والتَّجانُس مع المعتقدات الفطريَّة

التَّصوُّف حالة شريفة ترتقي بالإنسان من ظلمات المادة إلى فضاء الروح، وهي نزعة فطريَّة خلقها الله تعالى في هذا الكائن المكرم الذي ارتضاه خليفة له في أرضه. وهذه الحالة قد تزيد وترتقي، أوقد تنقص وتتوارى بمقدار ما لدى الإنسان من الاستعداد لقبولها، وبالتالي ما يمارسه من طقوس وعبادات دينيَّة تساعد على بقاء هذه الحالة والترقي في مدارجها.

ولم يكن مصطلح التَّصوُّف أو الصُّوفيّة دائرًا على الألسنة في القرنين الأول والثاني من الهجرة في حين أنه كان حاضرًا بمعناه، خاصة في فقراء المهاجرين من أهل الصفة، الذين نزلت فيهم آيات قرآنيَّة تزكِّيهم وتشهد لهم برفعة المنزلة عند الله كقوله تعالى: **{وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا} (28 الكهف).**
فقد قالوا تعقيبًا على هذه الآية: ما أشرف قومًا أمر اللهُ رسولَه –صلى الله عليه وسلم– أن يصبر نفسه معهم.

ولذلك قال الإمام القشيري[2] في شأنهم: "قد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضَّلهم على كافة عباده، بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم. وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفّاهم من أكدار البشرية، ورقّاهم إلى محالّ المشاهدات بما تجلّى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكامه الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما مَنّه سبحانه عليهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال، أو صفا لهم من الأحوال، علمًا منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجب عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل"[3].

فالتَّصوُّف الإسلاميّ بدأ في القرنين الأول والثاني الهجريين في صورة الزهد وهو الانصراف عن ملذات الحياة، والاتجاه إلى الله تعالى، والعمل للآخرة، ونلمس ذلك في أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته، وفي أقوال كثير من الصحابة والتابعين.

وانتقل التَّصوُّف إلى المرحلة الثانية في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وفي هذه المرحلة بدأ التَّصوُّف يأخذ صورته الخاصة التي تميزه عن الزهد، وقد انقسم رجال التَّصوُّف في هذا العصر إلى فريقين: فريق اختص بالنظر في أحوال النفس ودقائقها وسلوكها وأسباب ترقيها وصفاتها، إلى جانب الوجد

والعشق الإلهي، وهذا الاتجاه كان موافقا للشريعة، مستندًا إليها، غير مخل بتعاليمها أو متعارض مع ظاهرها. ويأتي على رأس هذا الفريق الشيخ أبو القاسم الجنيد المتوفى سنة 298هـ، وأستاذه المحاسبي المتوفى سنة 243هـ، والسَّرِيّ السَّقَطيّ المتوفى سنة 253هـ، وأبو سعيد الخراز المتوفى سنة 279هـ وغيرهم. أما الفريق الثاني، فكان له –إلى جانب الوجد والعشق– نظرٌ في فلسفات العصر، واطلاع على ثقافاته المختلفة، ودياناته المتعددة، فظهر أثر ذلك كله في تعبيرات رجاله وأقوالهم وإشاراتهم بما يوهم بالتعارض مع ظاهر الشريعة؛ خاصة إذا لم يتأول بما يوافقها. ويمثل هذا الفريق أبو يزيد البسطامي المتوفى سنة 261هـ، والحسين بن منصور الحلاج الذي قُتل سنة 309هـ، وذو النون المصري المتوفى سنة 245هـ، وقد اتُّهم ثلاثتهم بالزندقة والخروج على الشريعة، وقُتل الحلاج، ونجا البسطامي وذو النون.

ومع القرن الخامس الهجري تأتي المرحلة الثالثة، والتي يمثلها أبو حامد الغزالي، الذي وفق بين التَّصوُّف والشريعة، ومحا أسباب الخلاف بما تميز به من حجة ظاهرة، وبيان ساحر، وقد سعى الغزالي في إثبات أن التَّصوُّف جانب مهم من جوانب الشريعة الإسلامية، يدعو إليه الكتاب والسنة، بل إنه روح الإسلام، والعاصم من الزيغ، والمنقذ من الضلال، والطريق الوحيد لمن أراد الوصول إلى الحقيقة.

يقول الدكتور التفتازاني: "ومع أن الغزالي يتجه في التَّصوُّف كما رأيت اتجاهًا خالصًا إلا أن ثقافته الفلسفيَّة قد أكسبته قدرة على الشرح والتحليل

والموازنة في معالجته لمسائل التَّصوُّف، كما أكسبته مهارة في نقد ما يخالف التَّصوُّف السني من مذاهب، وإثبات ما يريد إثباته من قضاياه، وقد لاحظ "ماكدونالد" ذلك فقال: "إنه أكسب التَّصوُّف مكانة راسخة عند أهل السنة المسلمين"[4].

وبفضل الغزالي ازداد التَّصوُّف الإسلامي ازدهارًا، واكتسب شرعية، وانضم كثير من الفقهاء إلى الصُّوفيّة.

وفي القرنين السادس والسابع كانت المرحلة الرابعة، مرحلة النضوج وظهر أقطاب الصُّوفيّة الذين كثرت أتباعهم وعظمت شهرتهم في البلاد الإسلامية بما اشتهر عنهم من كرامات وأحوال شريفة، أمثال السيد أحمد الرفاعي المتوفى سنة 570هـ، والسيد عبد القادر الجيلاني المتوفى سنة 561هـ، والإمام أبي الحسن الشاذلي المتوفى سنة 656هـ، وخليفته أبي العباس المرسي المتوفى سنة 685هـ، والسيد أحمد البدوي المتوفى سنة 675هـ، والسيد إبراهيم الدسوقي المتوفى سنة 676هـ.

كما ظهر كبار مفكري الصُّوفيّة الذين كان لهم أثر ملموس في نضوج الفكر الصُّوفيّ الإسلامي، والذي ظهر فيه ثقافتهم المتعددة المصادر في صياغة جديدة، مقرونة بتجاربهم ومشاعرهم الخاصة، وبهذا كانوا امتدادًا للبسطامي والحلاج، ويأتي على رأس هؤلاء محي الدين بن عربي صاحب الفتوحات المكية المتوفى سنة 638هـ وتلميذه عبد الحق بن سبعين المتوفى سنة 669هـ وقبلهما كان السهروردي صاحب حكمة الإشراق الذي قتل سنة 587هـ وغيرهم.

وشهدت هذه المرحلة المهمة ظهور كبار شعراء الصُّوفيّة أمثال عمر بن الفارض الملقب بسلطان العاشقين، والعفيف التلمساني، والبوصيري، وابن إسرائيل، والخيمي، وغيرهم. واختتم ابن عطاء الله السكندري المتوفى سنة 709هـ عطاء تلك الكوكبة اللامعة بتصنيف كتابه "الحكم" الذي يعد من أجمع وأرقى النصوص في علم التَّصوُّف الإسلامي حتى عصرنا هذا. ولقد كانت هذه المرحلة من أنضج وأنضر وأسخى مراحل التَّصوُّف الإسلامي عطاءً وفكرًا وأدبًا.

ثم جاء بعد ذلك المفكر الصُّوفيّ عبد الكريم الجيلي أو الجيلاني المتوفى سنة 820هـ صاحب نظرية الإنسان الكامل.

وبعد هذه المرحلة سار التَّصوُّف مع الحياة نزعةً إنسانيَّة، يأخذ في كل عصر صورًا متنوعة تساير روح العصر حتى وقتنا هذا؛ فظهرت الطرق الصُّوفيّة وانتشرت في المجتمعات الإسلامية، وازدهرت معها فنون الإنشاد الديني والأحزاب والأوراد والطقوس الاحتفالية في المناسبات الدينيَّة على نحو ما نرى ونشهد في هذه الأيام.

وقد واجه التَّصوُّف الإسلامي –ولا يزال– سيلًا من الاتهامات العقدية التي تبدأ من التبديع والتفسيق حتى تصل إلى الرمي بالكفر والزندقة، وذلك من أهل التطرف الفكري الذين يفتقرون إلى معرفة تاريخ الفكر الإسلامي وأصول الفقه المنبثقة من علم المنطق.

ومع ذلك يملك التَّصوُّف الإسلامي من المقومات التربوية والذوقية والروحية ما يمكن أن يمثل حلولًا لمشكلات كثيرة تتصل بسلامة الاعتقاد.

يقول الدكتور مصطفى الفقي: "إن تاريخ الحركات الصُّوفيّة في إطار الحضارة الإسلامية تاريخ حافل بالومضات المضيئة نقف فيها أمام محطات مهمة لعل أبرزها إسهامًا جلال الدين الرومي.

والصُّوفيّة ليست بدعة، ولكنها استغراق في التدين الصحيح والمضي في رحلة العشق الإلهي إلى حيث يمكن الوصول إلى مرحلة الطرح الصُّوفيّ الكبير الذى يضع صاحبه في مكانة رفيعة يختلط فيها التعبد بالزهد وتمتزج فيها بساطة الدين وروعته بطقوس روحية لا تتعارض مع الأصول الثابتة للعقيدة ولا الشريعة، كما أنها تخرج من عباءة الجدل الفقهي لتصل إلى حالة من التوحد مع الذات الصافية والمضي في ذكر الله بطرق مختلفة فيها إيقاع حي يربط المخلوق بالخالق، بينما التطرف هو نمط بائس ويائس من الهجرة الزمانية إلى كتابات بعض فقهاء القرن الثالث الهجري في محاولة لتطويع النصوص في خدمة أهداف لا تمت لصحيح الدين من قريب أو من بعيد، وهي تأتى نتيجة جرعات من الشعور بالعزلة وتكفير الآخر ورفض حياة العصر"[5].

وبالنسبة لما يمكن أن يقدمه التَّصوُّف في مجال المعتقدات الدينيَّة وما أصابها من شوائب خرجت بها عن الفطرة السوية للإنسان، فإن العقيدة الصُّوفيّة تتميز بأنها عقيدة قلبية ذوقية فطريَّة نابعة من الإسلام دين الفطرة، بيد أنها تتخذ من القلب المنطلق الأول للإيمان بالله تعالى: **يقول الكلاباذي المتوفى سنة 380هـ**: "أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده. وسبيل العقل عندهم سبيل العاقل في حاجته إلى الدليل لأنه محدث والمحدث لا يدل إلا على مثله"[6].

ويقول الإمام الشاذلي: "إنَّا لننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان، ونستدل به على الخلق، هل في الوجود سوى الملك الحق، فلا تراه، وإن كان ولابد فتراهم كالهباء في الهواء، وإن فتشتهم لم تجد شيئًا"[7].

وللمنهج العقدي الصُّوفيّ اتجاهان: **أحدهما** يقوم على الإيمان القلبي الفطري الذي لا يحتاج إلى دليل عقلي، انطلاقا من قولة تعالى: **{وفي أنفسكم أفلا تبصرون}** وهذا ما أشار إليه قول الإمام الشاذلي، وقبله الكلاباذي. قال تعالى: **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}** [آل عمران:18]، فقد شهد الباري عزّ وجل بوجوده، وأنه إله الكون، وخالقه، وكفى بالله شهيدًا، قال تعالى: **{أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}** (فصلت:53).

والثاني يكون من خلال التأمل والتفكر العقلي الفطري من باب قول الأعرابي البسيط" **إن البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على العليم الخبير؟!**

قال تعالى في معرض الحديث عن الدلائل على وجود الخالق؛ ليقر العباد بطريق الإلزام بربهم سبحانه وتعالى، فيعبدوه وحده لا شريك له: **{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}** [العنكبوت:20]، وقال تعالى **{سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**

شَهِيدٌ} (فصلت53)، وقال تعالى **{أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ * أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ}** [الطور:35-37]، فالله عز وجل يقول لهؤلاء المنكرين خالقهم: أنتم -أيها البشر- موجودون، وهذه حقيقة لا تنكرونها، وكذلك السماوات والأرض موجودتان، ولا شك في ذلك، وقد تقرر في العقول أن الموجود، لا بدّ له من سبب لوجوده، وهذا يدركه راعي الإبل في الصحراء.

إذا أضفنا إلى ذلك ما في المنهج الصُّوفيّ من دعوة إلى الإعراض عن الدنيا وغرورها، ومجاهدة النفس وتزكيتها -وهو ما سنتناوله في المحور الثاني- وأضفنا أيضًا ما يبثه هذا المنهج من الصفاء والمحبة والراحة النفسيَّة، فسنجد أن ذلك يساعد كثيرًا في درء الوساوس النفسيَّة، والشبهات التي تؤرق العقل والفكر ولا طائل من ورائها.

ولا يجب أن نغفل أمرين جوهريين في المنهج العقدي الصُّوفيّ: الأول تلك الواردات الإلهية التي ترد على الصُّوفيّ، كالرؤى الصالحة، والمكاشفات الربانية، والفراسة الوهبية، وهي أمور ذوقية ترسخ الاعتقاد في هذا المسلك.

ثم يأتي الأمر الثَّاني وهو تلك الكرامات أو خوارق العادات التي يتناقلها أهل التَّصوُّف فيما بينهم، أو يرونها بأعينهم. وكرامات الأولياء -كما هو معروف في علم العقيدة- امتداد طبيعي لمعجزات الأنبياء الذين يتبعهم أصحاب تلك الكرامات من الأولياء، ومن نصوص المتون التي كانت تدرس بالأزهر الشريف في علم التوحيد:

وأَثْبِتَنْ للأوليا الكرامةْ ومَنْ نفاها فانْبِذَنْ كلامَه (جوهرة التوحيد).

ولا يخفى ما لهذين الأمرين من أثر في ترسيخ الاعتقاد الديني والانصراف عن الحوارات العقيمة التي تورث القلق والتوتر وبالتالي تؤدي إلى الفساد الاجتماعي بصوره المتعددة.

المحور الثاني: من مجاهدة النفس إلى التزكية

طريق التَّصوُّف طريق تزكية ومجاهدة، فالصوفية ينظرون إلى النفس ونزواتها وشهواتها نظرة حكيمة؛ حيث يخالفونها بالتدرج التربوي بإشراف شيخ بصير بدسائسها، حتى لا تحدث انتكاسة تسبب توحشها في نيل المكاسب والأطماع، فالنَّفس –كما ورد في القرآن الكريم– أمّارة بالسوء؛ لذلك قسموا هذا التدرج في مجاهدتها إلى مراحل، فالسالك يجاهد نفسه الأمّارة حتى تصل إلى مرحلة النَّفس اللوامة، ثم المطمئنة، ثم الراضية، ثم المرضية. وكلها أوصاف وردت في القرآن الكريم.

وجهاد النفس عند الصُّوفيَّة جهاد مقدس، وهو الجهاد الأكبر الذي يستمر مع الإنسان طوال حياته، وهم في هذا يمتثلون لقول الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[8] وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم "والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله"[9]، يقول ابن القيم: "كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ، وَأَصْلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ، وَيُحَارِبهَا فِي اللَّهِ : لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الْخَارِجِ؛ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ، وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ: وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ ، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ ، لَمْ

يُجَاهِدْهُ ، وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ بَلْ لَا يُمْكِنُهُ الْخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ، حَتّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ"[10].

وقال ابن رجب الحنبلي: "النوع الثاني من الجهاد: جهاد النفس في طاعة الله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المجاهد من جاهد نفسه في الله"، وقال بعض الصحابة لمن سأله عن الغزو؟: "ابدأ بنفسك فاغزها، وابدأ بنفسك فجاهدها" وأعظم مجاهدة النفس على طاعة الله عمارة بيوته بالذكر والطاعة"[11]، وقال في موضع آخر: "فهذا الجهاد يحتاجُ أيضاً إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه غلبه، وحصل له النصر والظفر، وملَكَ نفسه، فصار عزيزاً ملكاً، ومن جَزِعَ ولم يَصبر على مجاهدة ذلك، غُلِب وقُهر وأُسر، وصار عبداً ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه ، كما قيل:

"إذا المَرءُ لم يَغلِبْ هواهُ أقامه * بمنْزلةٍ فيها العَزيزُ ذَليلُ"[12]

وقد أشار شرف الدين البوصيري في بردته الشهيرة إلى قضية جهاد النفس وضرورة مخالفتها، واتهام النفس عند البوصيري –كما هو عند المتصوفة– بداية السلوك في مدارج التحقيق. وقد تكلم أهل التصوف في تهذيب النفس ومجاهدة شهواتها حتى تترقى إلى الله تعالى، واعتبروا ذلك معيارًا للتصوف الحقيقي، فمن أشهر تعريفات التصوف المنسوبة إلى أئمة الصوفيَّة: "أن يميتك الحق عنك ويحيك به"[13]، ويقول ابن عطاء الله السكندري في إحدى حكمه: "أصل كل معصية وغفلة الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها، ولأن تصحب جاهلا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب

عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالم يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟"[14].

ومن هذا المنطلق برز هذا الاتجاه في شعر البوصيري وبخاصة في مدائحة النبوية قبل أن يشرع في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم نراه يكيل لنفسه الاتهامات القاسية ويعترف بالتقصير والذنب والضعف والانكسار وكأنه يتطهر أو يتوضأ قبل البدء في المدح المقدس، وقد أشار الدكتور أحمد طاهر حسنين إلى هذه النزعة في حديثه عن مقدمة البردة وسماها "بالوضوء الشعري" يقول: "البوصيري هنا –وهو يعتزم مدح النَّبي صلى الله عليه وسلم– لا يستطيع بحال أن ينفي عن نفسه صفة البشرية، فاستحضر من نفسه ابن آدم: هذا الخطاء الذي نضج فندم وتاب وثاب وأناب. ولعله خشي أن يقدم على مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يحمل بين جنبيه كل الآثام والأوزار العالقة به من ماضيه، فأراد أن يعترف بها منذ البداية، وليثبت في الوقت ذاته أنه إنسان تعتريه كل ما يعتري الإنسان من لحظات ضعف تزل به فتجعله أحيانا يحيد، حتى إذا خلص للمدح، جاء مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم من إنسان نظيف طاهر عفيف..."[15].

فبعد أن بدأ البوصيري بردته بذلك النَّسيب الذي ربطه بذكر الأماكن المقدسة، انتقل – بحسن تخلص – إلى نقد الذات أو محاسبة النفس في قوله:

فــإنَّ أمَّــارَتِي بالسُّــوءِ مــا اتَّعَظـَـتْ مِــنْ جَهْلِهَــا بنــذيرِ الشَّــيْبِ وَالهَــرَمِ
ولا أَعَدَّتْ مِنَ الفِعْلِ الجَمِيلِ قِرَى ضَــيفٍ ألــمَّ بِرَأْسِــي غيــرَ مُحْتَشِــمِ
مَـنْ لِـي بِـرَدِّ جِمـاحٍ مِـنْ غَوايَتِـها كمـــا يُـــرَدُّ جِمـــاحُ الخَيْـلِ باللُّـــجُمِ

فهو –هنا– يتهم نفسه بأنها لم تتعظ بتقادم الزمان وحلول المشيب فلم تستعد لمعادها ومآلها. ويعرب عن أمله في إصلاح حالها ورد جماحها.[16]

وعلى مستوى الصِّياغة الفنيَّة، يستعين البوصيري بالتصوير وبعض فنون البديع الذي يمثل ذوق العصر لإثبات فكرته. فهو يكني عن نفسه مباشرة بـ"أمارتي بالسوء" وهو تركيب قرآني يبين مدى رسوخ الخلفية القرآنية لديه والتي أشرنا إليها سابقًا. ثم يصور المشيب والهرم بالنذير الذي يدق ناقوس الخطر، ويردف ذلك بصورة جمع أجزائها من الشعر القديم مضمنا شطر بيت للمتنبي؛ حيث يصوِّر النفس الغافلة بأنها لم تحفل ولم تُعِدَّ قرى هذا الضيف "الشيب" الذي صوره سابقا بالنذير. والذي انتشر في الرأس من غير احتشام. ثم يعود ليصور نفسه بالخيل الجامحة التي تحتاج إلى لجام كي يكبحها. صور متلاحقة تتضافر جميعا لتؤكد نظرته الناقدة إلى النفس.

ومن خلال هذه النظرة الناقدة نفسها يحاول البوصيري أن يلبس ثياب الواعظ الناصح الأمين فيخاطب نفسه أو نفس أي إنسان يتلقى شعره قائلا:

فـلا تَـرُمْ بالمعاصِـي كَسْـرَ شَـهْوَتِها ... إنَّ الطعـامَ يُقَـوِّي شَـهْوَةَ الـنَّهِمِ
والـنَّفْسُ كالطِّفْلُ إنْ تُهْمِلْهُ شَبَّ عَلَى ... حُـبِّ الرِّضـاعِ وإنْ تَفْطِمْـهُ يَـنْفَطِمِ
فاصْـرِفْ هَواهـا وَحـاذِرْ أنْ تُوَلِّيَـهُ ... إنَّ الهَـوَى مـا تَـوَلَّى يُصْـمِ أَوْ يَصِـمِ
وَراعِهـا وهِـيَ فـي الأعمـالِ سـائِمَةٌ ... وإنْ هِـيَ اسْـتَحَلَتِ المَرعَـى فـلا تُسِـمِ
كَـمْ حَسَّـنَتْ لَـذَّةً لِلْمَـرْءِ قاتِلَـةً ... مِنْ حَيْثُ لَمْ يَدْرِ أنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
وَاخْشَ الدَّسائِسَ مِنْ جُوعٍ وَمِنْ شَبَعِ ... فَـرُبَّ مَخْمَصَـةٍ شَـرٌّ مِـنَ الـتُّخَمِ
واسْتَفْرِغِ الـدَّمْعَ مِنْ عَـيْنٍ قد امْـتَلأَتْ ... مِـنَ المَحـارِمِ وَالْـزَمْ حِمْيَـةَ النَّـدَمِ
وخـالِفِ الـنَّفْسَ والشَّـيْطَانَ واعْصِـهِما ... وإنْ هُمَـا مَحَّضَـاكَ النُّصْـحَ فـاتَّهِمِ
وَلا تُطِـعْ منهمـا خَصْـماً وَلا حَكَمـاً ... فأَنْـتَ تَعْـرِفُ كَيْـدَ الخَصْـمِ والحَكَـمِ

فهو هنا يجرد من نفسه شخصًا آخر أمامه يعظه وينصحه ويقنعه بالدَّليل والبرهان؛ لأن الإنسان خُلق ضعيفًا أمام ما يواجهه من مغريات وشهوات، وقد يلجأ إلى إرضاء نفسه بأن يحقق لها رغباتها كي تقر وتسكن، ولا يعلم أنه بهذا يعوِّدها على التمادي فيما جبلت عليه من غرائز أنانية، فيستفحل أمرها حتى يتسع الخرق على الراقع، ويدعم ذلك بالتشبيه الضمني: "إن الطعام يقوي شهوة النهم" ثم يؤكد ذلك بالتشبيه التمثيلي، فيشبهها بالطفل الصغير الذي يجب أن يفطم حتى ينصلح شأنه ويحيا حياته الطبيعية، وإلا سيشب على حب الرضاع مما يزري به بين الناس.

ويستمر البوصيري في نقد دقائق النَّفس الإنسانيَّة التي تخادع صاحبها محذرًا من مغبَّة موالاتها واتباع هواها؛ حيث توصل إما إلى الهلاك أو إلى

العار، وكلاهما مر. ثم ينصح بالانتباه إليها ومراعاتها ومراقبتها في أعمالها التي ستحاسب عليها؛ حيث هو معيار الإخلاص فإن هي استمرأت الحال واستحلت هذا العمل أو ذاك فلا ينبغي أن يركن المرء إلى ذلك ويستمر، بل يجب أن يكون هناك وقفة للمراجعة والحساب، حتى يسلم المرء من مخادعتها، ولا يغتر بما تزينه له من حلاوة العمل. ثم يحذر بصورة مباشرة من النفس والشيطان، ويدعو إلى مخالفتهما، ودوام اتهامهما، مهما تحايلا في التظاهر بالنصح والموالاة:

وخالِفِ النَّفْسَ والشَّيْطَانَ واعْصِهِما ... وإنْ هُمَا مَحَّضَاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

وَلا تُطِعْ منهما خَصْماً وَلا حَكَما ... فأَنْتَ تَعْرِفُ كَيْدَ الخَصْمِ والحَكَمِ[17]

رفع الهمة عن الخلق (الحرية الحقيقية):

مما ورد في الحكم العطائية حول الحث على تعلق الهمة بالله وحده ورفعها عن الدنيا بأسرها قول ابن عطاء الله: "**أنت حر مما أنت عنه آيس، وعبد لما أنت فيه طامع**"[18]؛ حيث يتجلى مفهوم الحرية الحقيقية، فمن ثمار معرفة الله تعالى رفع الهمة عن الخلق وهذا أمر طبيعي لمن شهد صورة الله في كل شيء حوله، وشهد الله فاعلًا في كونه وهو ما تلح الحكم على إثباته وبيانه. جاء في الحكم أيضًا: "**لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك، فكيف يرفع غيره ما كان هو له واضعًا؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها عن غيره رافعا؟**"[19]، "وبالمجاهدة تتم حرية الإنسان؛ حيث ينتصر على رغباته وشهواته، ويقطع رجاءه بدنيا الناس، فهي سعادة إذن مدخلها

الحرية، والحرية في نظر المتصوفة كما عبر عنها القشيري هي ألا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات"[20]. فإذا رفع الإنسان همته، واستغنى بربه عن الخلق، فهو حر تمامًا؛ لأنه لا يريد شيئًا من أحد، ولن يخاف أحدًا من الخلق، وبالتالي يمكنه أن يقول ما يشاء، ويتصرف بما يرى أنه الحق ولا يخشى في الله لومة لائم.

تعظيم حرمة الشريعة:

اقترن اسم التَّصوُّف عند بعض علماء الشريعة بالشطح والتحلل عن الأمور الشرعية؛ وسبب ذلك ما وجدوه في سير وأقوال وأفعال بعض الذين عرفوا بالتَّصوُّف أو انتسبوا إليه، وهذا الأمر يجب ألا يقاس عليه، ولسنا الآن بصدد البحث فيه، أو تأويل تلك الشطحات والأقوال بما ينسجم مع الشرع، أو حتى بيان أسباب ذلك، كل ما هنالك نريد أن نوضح الرؤية الصوفية لهذا الأمر، وابن عطاء الله نموذج من المتصوفة الذين يراعون تماما حرمة الشرع، ولا يقولون بإسقاط التكاليف، وهو يعتبر أن هذه التشريعات إنما هي مراد الله من خلقه، والالتزام بها هو عين العبودية. يقول في إحدى حِكَمه: "**من علامات اتباع الهوى المسارعة إلى نوافل الخيرات والتكاسل عن القيام بالواجبات**".

فهو يرى أن مجرد التكاسل في أداء الفرائض الواجبة والمسارعة إلى النوافل الاختيارية من علامات اتباع هوى النفس، وهذه القضية لها أهميتها في مجال التوجه إلى الله، حتى لا يظن السالك أن اختياره لنفسه خير من اختيار الله له. ثم يوضح المؤلف الحِكمة الإلهية من الالتزام بالفرائض الواجبة في حكمتين

تاليتين للحكمة السابقة؛ حيث يقول: "**قيِّدَ الطاعات بأعيان الأوقات كي لا يمنعك عنها وجود التسويف، ووسع عليك الوقت كي تبقى لك حصة الاختيار**" ثم يقول: "**عَلِمَ قلة نهوض العباد إلى معاملته فأوجب عليهم وجود طاعته ...**". وقد تعرض ابن عطاء الله لهذه القضية في كتابه لطائف المنن[21] حيث أفاض في شرح الحديث القدسي الصحيح: "**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**"[22]، ووقف وقفة طويلة عند قوله تعالى في الحديث القدسي: "وما تقرَّب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه". وهو يعبِّر بذلك عن رؤية شيخيه اللذَين يعتز بهما كثيرًا: أبي العباس المرسي، وأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما، فهما وتلميذهما ابن عطاء الله يرون جميعًا أن التقيد بمراسم الشريعة أكمل وأتم من التحلل منها، أو من بعضها. كما أنهم يركزون في دعوتهم على التخلص من رؤية النفس وحظوظها في أداء هذه التشريعات؛ بحيث يشهد العبد التزامه بها توفيقًا من الله. ويرون أن حالة البقاء بالله التي يدرك الإنسان فيها ما حوله، ويكون على وعي بمراسم الشريعة وإقامة التكليفات، هي أكمل وأتم من حالة الفناء التي يغيب فيها المرء عن الكون، فالمعروف عند الصُّوفيّة أن العارف بالله هو من رده الله إلى البقاء بعد الفناء، فشهد الله سبحانه

وتعالى في كل ما حوله، ويذكرون أن الله تعالى إنما خلق المملكة ليُشهد فيها لا لينخلع المرء عنها، فالانخلاع والفناء يكون مرحلة من مراحل الطريق، يأتي بعدها البقاء الذي هو أكمل وأتم كما أشرنا.

المحور الثالث: التواصل الاجتماعي الإيجابي ومكارم الأخلاق:

يقوم المنهج الصُّوفيّ في المعاملة على أساس مقام الإحسان، وهو كما ورد في السنة " **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك" (البخاري)**، وهذا المقام هو أسمى درجات الإيمان؛ حيث المعاملة الحسنى مع المخلوقات جميعًا، والبيئة المحيطة، بما تحوي من إنسان وحيوان ونبات بل وجماد.

ومن هنا حرص الصُّوفيّة على الصحبة التي تعين على ذلك. "**لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله**". ومع ذلك كانوا يتعاملون مع غيرهم بالحسنى والعفو وتلمس الأعذار، بل تعودوا –بسبب تزكية نفوسهم– أن يظنوا أن غيرهم أفضل منهم امتثالًا لقول قائلهم:

ولا تَـرَيَنْ فـي الأرض دونـك مؤمنًـا ... ولا كـافرًا حتـى تُغيَّـبَ فـي القبـرِ
لأن خـتام الأمـر عنـك مغيَّـبٌ ... ومن ليس ذا خُسْرٍ يخافُ من المَكْرِ

وقد ورد في كتاب لطائف المنن موقف للإمام أبي الحسن يدل على مشاركته الإيجابية في شئون المجتمع وحرصه على إخراج تصريح لطبيب عيون يهودي(كحّال) لكي يعالج الناس يقول المؤلف "ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه استدعى يهوديًا كحّالًا ليداوي بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا أستطيع أن أعالجه إلا بإذن؛ فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا

يداوي أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لخادمه: هّيئوا آلة السفر، وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذنًا وعاد، ولم يبت بها ليلة واحدة، ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي، فاعتذر له بما اعتذر به أولًا، فأخرج له الشيخ مكتوبًا بالإذن، فأكثر اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم"[23].

ثم يردف موقفًا آخر يبين المشاركة الإيجابية لأهل التَّصوُّف، وأن الزهد لا يعني الفاقة والفقر الظاهري بل هو الفقر لله تعالى. فلا مانع من أن يكون الصُّوفيّ ذا مال، بشرط أن يؤدي حقه ولا يشغله عن مولاه.

يقول: "كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوت ببعضه فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ: إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخي فلان فأقرئه مني السلام وتطلب الدعاء منه لي فإنه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة، فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك، فتعجبت من ذلك، وطلبته، فقيل لي: هو عند السلطان، فازداد تعجبي، فبعد ساعة، وإذا هو أتى في أفخر ملبس ومركب وكأنما هو ملك في موكبه قال: فازداد تعجبي أكثر من الأول، قال: ففهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفه الشيخ، فاستأذنت فأذن لي، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك، قال: جئت من عنده؟ قلت: نعم، قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغباتك فيها؟ فقلت: هذا والله أعجب من الأول! فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم، قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء، قال: لابد أن تقول لي، فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلًا وقال: صدق أخي فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندي إليها بقايا التطلع"[24].

فأهل التَّصوُّف الحق ينظرون إلى بواطن الأمور لا إلى ظواهرها.

أما بالنسبة إلى نظرتهم إلى العمل الدنيوي والتكسب، فقد ورد في كتاب التعرف لمذهب أهل التَّصوُّف ما نصه: "قولهم في المكاسب: أجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك مما أباحته الشريعة على تيقظ وتثبت وتحرز من الشبهات. وأنها تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار والعطف على الجار. وهي عندهم واجبة لمن ربط به غيره ممن يلزمه فرضه" [25]. **كما أنهم لا يتعصبون لمذهب ما بل يحترمون المخالفين ويؤمنون أنه كل مجتهد مصيب. يقول صاحب كتاب التعرف:**

"قولهم في المذاهب الشرعية: إنهم يأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء، وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن. ويرون اختلاف الفقهاء صوابًا ولا يعترض الواحد منهم على الآخر؛ وكل مجتهد عندهم مصيب، وكل من اعتقد مذهبًا في الشرع وصحّ ذلك عنده بما يصح مثله مما يدل عليه

الكتاب والسنة وكان من أهل الاستنباط فهو مصيب باعتقاده ذلك، ومن لم يكن من أهل الاجتهاد أخذ بقول من أفتاه ممن سبق إلى قلبه من الفقهاء أنه أعلم وقوله حجة له"[26].

وقد أكد الدكتور مصطفى الفقي في مقاله الذي سبقت الإشارة إليه على مجموعة من المقومات الإيجابية التي تتسم بها النزعة الصُّوفيّة وتصلح منهجًا في مواجهة التطرف الفكري وما يترتب عليه من فساد في الأرض وإرهاب لا يمت بصلة للدين الإسلامي الحنيف. يقول: "إن الصُّوفيّة تمثل جيشًا سلميًا لخدمة الإسلام وليست جماعة مغلقة بالمنطق (الماسوني) للكلمة، إنها روح متجددة وحب للآخر واحترام لخيارات الغير لذلك عاشت عبر القرون دون صدام يذكر مع السلطات الحاكمة رغم أن بعضها كان ظالمًا يجور أحيانًا على رجال الزهد وأصحاب النظرة الشفافة تجاه الحياة والناس، ولقد اتسم الطابع الصُّوفيّ دائمًا بقبول التعايش المشترك مع أصحاب الديانات الأخرى فضلًا عن نزعة متأصلة تدعو إلى احترام خيارات الغير، وإذا كانت الصُّوفيّة قد ارتبطت بالأعلام الخضراء والإيقاع الموسيقي الراقي فإنها قد عرفت أيضًا التعددية والتشعب بين طرق صوفية مختلفة ومدارس متعددة في ذكر الله قد تختلف في الأسلوب ولكنها تتوحد أمام الغاية وهي الاندماج في ذاته والانصياع لجلاله وعزته"[27] .

وقد أشار إلى دور الأزهر الشريف وشيوخه الأجلّاء الذين جمعوا بين التَّصوُّف والفقه والفلسفة، في مواجهة هذه الآفات الفكرية: "إنَّ الأزهر الشريف كان ولا يزال قلعة إسلاميَّة صافية احتضنت مدارس التَّصوُّف وتفاعلت معها

وسعت إلى نقائها، بل إن اثنين يحملان لقب "الإمام الأكبر" في العقود الأخيرة ينتميان إلى مدارس صوفية متقاربة، ونحن نتذكر الآن شيخ الأزهر الدكتور عبد الحليم محمود وهو قطب صوفيّ بارز، عرفناه بمواقفه المستقلة ورفضه الانصياع لضغوط السلطة. كذلك فإن الإمام الأكبر حاليًا وهو الدكتور أحمد الطيب ينتمي إلى بيت صوفي عريق خرج من مدينة الآثار الفرعونية (الأقصر) ليثبت نظرية الجوار الآمن بين الحضارات والثقافات وهو أستاذ في الفلسفة الإسلاميَّة، عاش فترة في مدينة النور (باريس) مثلما فعل سلفه الإمام الصُّوفيّ الراحل الدكتور عبد الحليم محمود".

الهوامش

1- الشعراني – الطبقات الكبرى ج 2 – ص 28.

2- عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري، إمام الصوفية، وصاحب الرسالة القشيرية في علم التصوف، وهو من كبار علماء القرن الخامس الهجري، ت 465هـ.

3- القشيري- الرسالة- ص 36.

4- د أبو الوفا التفتازاني- مدخل إلى التصوف الإسلامي- ط 3 -دار الثقافة- القاهرة- 1979م- ص 163.

5- د مصطفى الفقي- التصوف في مواجهة التطرف- مقال بجريدة الأهرام المصرية- 18 أكتوبر 2016 السنة 141 العدد 47433.

6- أبو بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي- التعرف لمذهب أهل التصوف- مكتبة الخانجي بالقاهرة.

7- ابن الصباغ- درة الأسرار – تحقيق أنس الفقي- مركز تحقيق التراث جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا – ص 257.

8 – سورة الشمس 9

9 – رواه أحمد والنسائي والطبراني والحاكم

10 – ابن القيم- زاد المعاد – 3/6

11 – ابن رجب الحنبلي- لطائف المعارف- ص 227

12 – ابن رجب الحنبلي- جامع العلوم والحكم- 584/2

13 – أبو القاسم القشيري- الرسالة القشيرية – دار الجيل – بيروت – ص208.

14 – ابن عباد الرندي- غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية – تحقيق د.عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف-دار المعارف -القاهرة -جـ1 ص125-129.

15 – د. أحمد طاهر حسنين – إطلالة على بردة البوصيري وترسلاته- مجلة ألف-الأدب والمقدس-العدد23-2003م-ص98.

16 – انظر: د أنس عطية الفقي- الاتجاه الناقد في شعر البوصيري- المكتبة العالمية للنشر والتوزيع- القاهرة- ص21 وما يليها.

17 – السابق ص 28

18 – الحكم العطائية- عصام أنس- زاد الاقتصادية- القاهرة-2004-ص33

19 – السابق ص 24

20- د. فوزي أمين – المجتمع المصري في أدب العصر المملوكي الأول – دار المعارف- القاهرة- 1982 ص 182.

21- انظر ابن عطاء الله السكندري / لطائف المنن / تحقيق د/ عبد الحليم محمود / إصدارات مجلة دار الشعب 1986م – ص 44.

22- البخاري - (ج 20 / ص 158).

23- لطائف المنن 228.

24- لطائف المنن ص 229.

25- التعرف ص 56.

26- التعرف ص55-56.

27- مصطفى الفقي المقال السابق.